بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مَوسُوعةُ البَراهِينِ والمُعجِزات

دلائلُ نبوّةِ محمّدٍ ﷺ وصِدقِ القُرآنِ الكريم

مُعجِزاتٌ عِلميّة · شواهدُ تاريخيّةٌ وأثَريّة · نُبوءاتٌ تَحقَّقَت

بِشاراتُ التّوراةِ والإنجيل · عالَمُ الجِنِّ والسِّحرِ والغَيب

مَشروحةٌ شَرحاً يَفهَمُه الطِّفل · ١٥١ رَسماً مُلوَّناً

١٥١ بُرهاناً مُرتَّباً بقُوَّتِه

الباب الخامس

نُبوءاتُ النّبيّ ﷺ التي تَحقَّقَت

أخبارٌ قالها ﷺ عن مُستقبلٍ بعيد، سجّلها أصحابُه في كُتبهم، ثمّ وقعت أمامَ أعينِ الدُّنيا كما قال، حرفاً بحرف.

١٨ موضوعاً

فُتوحاتُ لَتُفتَحَنَّ القُسطَنطينيّة

لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ

رواه أحمد والبُخاريُّ في التّاريخ – صحّحه جماعة

القُسطَنطينيّة: أمنَعُ مدينةٍ مُحَصَّنةٍ في العالَمِ القَديم

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ **القُسطَنطينيّةَ ستُفتَح**، ومَدَحَ الأميرَ الذي سيَفتَحُها وجَيشَه. وبعدَ أكثَرَ من ثَمانيةِ قُرونٍ فَتَحَها السُّلطانُ مُحمّدٌ الفاتِح.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

القُسطَنطينيّةُ كانت **عاصِمةَ أقوى إمبراطوريّةٍ نَصرانيّةٍ في الأرض**، وأشَدَّ المُدُنِ تَحصيناً على الإطلاق: أسوارٌ ثُلاثيّةٌ ضَخمة، وخَليجٌ يُغلَقُ بسِلسِلةٍ حَديديّة، وبَحرٌ يُحيطُ بها من ثَلاثِ جِهات. وقد صَمَدَت أمامَ أكثَرَ من عِشرينَ حِصاراً عبر القُرون. والقائلُ يومَئذٍ في المدينةِ المُنَوَّرة، ولم تَكُن لدَولتِه بَحريّةٌ أصلاً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في **٢٩ مايو ١٤٥٣ م** فَتَحَها السُّلطانُ مُحمّدُ الثّاني وعُمرُه إحدى وعِشرونَ سنة، فلُقِّبَ بـ«الفاتِح». واستَعمَلَ مِدفَعاً عِملاقاً لم يُرَ مِثلُه، و**نَقَلَ سُفُنَه فوقَ اليابِسة** على ألواحٍ مَدهونةٍ بالشَّحمِ ليَتَجاوَزَ السِّلسِلة. والحَدَثُ من أشهَرِ ما في التّاريخِ العالَميّ، ويُؤَرَّخُ به لنِهايةِ العُصورِ الوُسطى.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الحَديثُ لم يَقتَصِر على الإخبارِ بالفَتح، بل **مَدَحَ الفاتِحَ وجَيشَه مُقَدَّماً** – وهذا يَزيدُ المُخاطَرة، إذ يَربِطُ صِدقَ النَّصِّ بصِفةِ رَجُلٍ لم يُولَد بعد. وقد تَنافَسَ قادةُ المُسلِمينَ على هذا الشَّرَفِ ثَمانيةَ قُرون، وحاصَرَها مُعاويةُ وسُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ وهارونُ الرَّشيدُ فلم يَفتَحوها – **وكلُّ محاولةٍ فاشِلةٍ كانت فُرصةً لتَكذيبِ الحَديث، لا لتَصديقِه**. ثمّ وَقَعَ الفَتحُ على يدِ فَتًى في الحاديةِ والعِشرينَ من عُمُرِه، بتِقنيّةٍ لم تَكُن مُتَخَيَّلة.

٧٧

إذا هَلَكَ كِسرى فلا كِسرى بعدَه

إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

وقَعَ كما قال

يَزدَجِردُ آخِرُ كِسرى
زالَت فارِسُ فلم تَعُد
والرُّومُ فَقَدَت الشّامَ ومِصر
وكُنوزُهما في بيتِ المال

قِيلَ وهم في أوجِ القُوّة

فارِسُ والرُّومُ يَحكُمانِ
نِصفَ العالَمِ المَعروف
والمُسلِمونَ في المدينة
دَولةٌ ناشِئةٌ بلا مال

الفَرقُ بين القَولِ والوُقوعِ: أقَلُّ من ثَلاثينَ سنة

إمبراطوريّتانِ حَكَمَتا قُروناً… انتَهَت إحداهُما وانحَسَرَت الأُخرى

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ **مَلِكَ فارِسَ إذا ماتَ لن يَأتيَ بعدَه مَلِكٌ مِثلُه**، وكذلك مَلِكُ الرُّوم، وإنّ كُنوزَهما ستُنفَقُ في سَبيلِ الله. ووَقَعَ ذلك كلُّه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت فارِسُ والرُّومُ **القُوَّتَينِ العُظمَيَينِ في العالَم** بلا مُنازِع، تَتَقاسَمانِ الشَّرقَ والغَرب، ولهما جُيوشٌ وخَزائنُ لا تُحصى. والمُسلِمونَ يومَئذٍ جَماعةٌ صَغيرةٌ في المدينة، يُحاصَرونَ في الخَندَقِ ويَربِطونَ الحِجارةَ على بُطونِهم من الجُوع. وفي تلك اللَّحظةِ بالذّاتِ قيلَ هذا الكَلام.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سَقَطَت الدَّولةُ السّاسانيّةُ نِهائيّاً سنة ٦٥١ م بمَقتَلِ **يَزدَجِردَ الثّالث**، ولم يَقُم لفارِسَ مَلِكٌ بذلك اللَّقَبِ بعدَه أبداً. وأمّا الرُّومُ فلم تَزُل دَولتُها فَوراً، لكنّها **فَقَدَت الشّامَ ومِصرَ وشَمالَ إفريقيا** وانحَسَرَت، ولم يَعُد لقَيصَرَ سُلطانٌ على تلك البِلاد. وقد حُمِلَت كُنوزُ كِسرى إلى المدينةِ في خِلافةِ عُمَرَ وقُسِّمَت، حتّى قال: «إنّ قَوماً أدَّوا هذا لأُمَناء».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انتَبِه للفَرقِ الدَّقيقِ بين الجُملَتَين. قيلَ في كِسرى: «فلا كِسرى بعدَه» – **وانتَهَت فارِسُ نِهائيّاً**. وقيلَ في قَيصَرَ مِثلُها – و**لم تَنتَهِ الرُّومُ بل انحَسَرَت** عن أراضي الإسلام. وهذا مُتَّسِقٌ مع سِياقِ الحَديثِ: إنّما الكَلامُ عمّن يَحكُمُ تلك الأرضَ ويُنازِعُ فيها. والأدَقُّ من ذلك أنّ الحديثَ جَعَلَ المِحوَرَ **الكُنوزَ لا الأرض**: «لَتُنفَقَنَّ كُنوزُهما في سَبيلِ الله» – وهي الجُملةُ التي أقسَمَ عليها. وَعْدٌ بمالٍ أغنى مَلِكَينِ في الأرضِ من رَجُلٍ لا يَجِدُ عَشاءَه.

٧٨

عَمّارٌ تَقتُلُه الفِئةُ الباغِية

وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

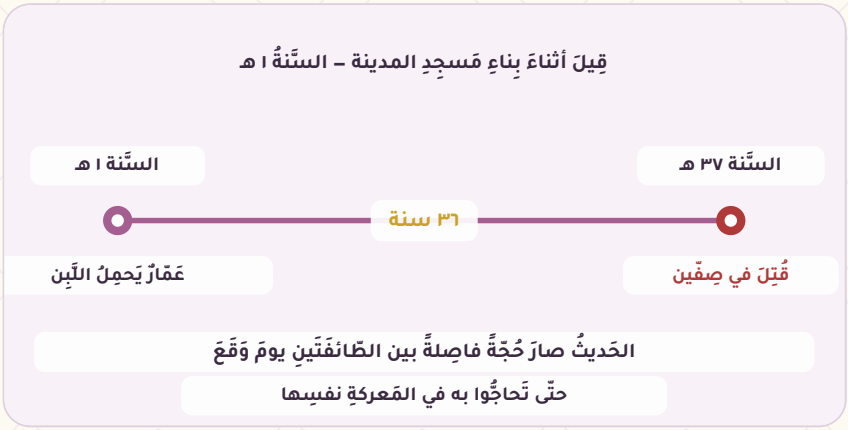

نُبوءةٌ قِيلَت في أوّلِ سنةٍ للهِجرة، ووَقَعَت بعدَ سِتٍّ وثَلاثينَ سنة

بكلامٍ بسيط

بينما كانوا يَبنونَ المَسجِد، قال النَّبيُّ ﷺ عن عَمّارِ بنِ ياسِرٍ إنّه **ستَقتُلُه فِئةٌ ظالِمة**. وبعدَ سِتٍّ وثَلاثينَ سنةً قُتِلَ عَمّارٌ في مَعركةِ صِفّين – فعَرَفَ النّاسُ مَن الباغي.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

قيلَ هذا الكَلامُ والمُسلِمونَ **جَماعةٌ واحدةٌ مُتَحابّةٌ في أوّلِ عَهدِها بالمدينة**، لا فِتنةَ بينهم ولا انقِسام، وكلُّهم يَبني المَسجِدَ بيَدِه. وفِكرةُ أن يَقتَتِلَ المُسلِمونَ فيما بينهم، وأن يُقتَلَ صَحابيٌّ جَليلٌ بأيدي مُسلِمين، كانت أبعَدَ ما يَخطُرُ على قَلبِ أحد.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

قُتِلَ عَمّارُ بنُ ياسِرٍ سنة ٣٧ هـ في مَعركةِ صِفّين، وهو في التِّسعينَ من عُمُرِه، في صَفِّ عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنه. و**اضطَرَبَ جَيشُ الشّامِ اضطِراباً شَديداً حين عُرِفَ أنّه قُتِل**، لأنّ الحَديثَ كان مَعروفاً مُتَداوَلاً بينهم. والحَديثُ مُخَرَّجٌ في الصَّحيحَينِ ومَرويٌّ عن جَماعةٍ من الصَّحابةِ من طُرُقٍ كَثيرةٍ بَلَغَت التَّواتُر.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أقوى ما في هذه النُّبوءةِ أنّ **الطَّرَفَينِ المُتَنازِعَينِ كِلَيهما كانا يَعرِفانِها ويَحتَجّانِ بها** – فهي ليست خَبَراً دُوِّنَ بعدَ الحادِثة، بل كان مُتَداوَلاً قبلَها بعُقود، حتّى إنّ وُقوعَه أحدَثَ أزمةً حَقيقيّةً في أحدِ الجَيشَين. ولو كان الحَديثُ مَوضوعاً بعدَ صِفّينَ لَما قَبِلَه الطَّرَفُ الذي يُدينُه. وقد سَمّى النَّبيُّ ﷺ **شَخصاً بعَينِه**، و**طَريقةَ مَوتِه** (القَتلُ لا المَرَض)، و**وَصفَ قاتِليه** (فِئةٌ باغِية، أي مُسلِمونَ ظالِمون لا كُفّار). ثَلاثةُ قُيودٍ وَقَعَت معاً.

٧٩

ابني هذا سَيِّد... يُصلِحُ اللهُ به بين فِئَتين

إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

رواه البُخاريّ – صحيح

السَّنةُ ٤١ هـ – عامُ الجَماعة

الأُمّةُ انقَسَمَت جَيشَين

الحَسَنُ يَتَنازَلُ للصُّلح

فتَوَحَّدَ المُسلِمونَ

وسُمِّيَ: عامَ الجَماعة

←

قِيلَ والحَسَنُ طِفلٌ صَغير

لا فِئَتَين ولا اقتِتال

والأُمّةُ كُلُّها واحدة

والطِّفلُ لم يَبلُغ

ولا مَنصِبَ له

تَنازَلَ عن الخِلافةِ وهو قادِرٌ عليها – فحَقَنَ الدِّماء

أعظَمُ صُلحٍ في التّاريخِ الإسلاميِّ المُبَكِّر، وصاحِبُه سُمِّيَ قبلَ أن يُدرِك

بكلامٍ بسيط

حَمَلَ النَّبيُّ ﷺ حَفيدَه الحَسَنَ وهو طِفلٌ صَغير، وقال: **سيُصلِحُ اللهُ به بين جَماعَتَينِ عَظيمَتَينِ من المُسلِمين**. وبعدَ نحوِ أربعينَ سنةً فَعَلَ ذلك بالضّبط.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَكُن في الأُمّةِ فِئَتانِ أصلاً – كانت جَماعةً واحدةً خَلفَ نَبيِّها. والطِّفلُ الذي قيلَ فيه الكَلامُ لم يَبلُغ، ولا يُعرَفُ ما يَصيرُ إليه. والحَديثُ يُخبِرُ عن ثَلاثةِ أشياءَ مَجهولةٍ معاً: أنّ الأُمّةَ **ستَنقَسِم**، وأنّ الانقِسامَ **سيَنتَهي بصُلح**، وأنّ هذا الطِّفلَ بعَينِه هو الذي سيَعقِدُه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ٤١ هـ، بعدَ مَقتَلِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، بُويِعَ الحَسَنُ بالخِلافة، وكان على رأسِ جَيشٍ كَبير. ثمّ **تَنازَلَ عنها لمُعاويةَ حَقناً لدِماءِ المُسلِمين**، فاجتَمَعَت الأُمّةُ على رَجُلٍ واحدٍ بعدَ سِنينَ من الاقتِتال. وسُمِّيَ ذلك العامُ في التّاريخِ الإسلاميِّ كلِّه: **«عامَ الجَماعة»**. والحَديثُ في صحيحِ البُخاريّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

تأمَّل ما تَقتَضيه هذه الجُملةُ الواحدة: إثباتُ **فِتنةٍ ستَقَع** في أُمّةٍ لم تَفتَرِق بعد، وتَحديدُ **الرَّجُلِ الذي يُنهيها** وهو طِفلٌ لم يَنطِق، وتَحديدُ **الطَّريقة** – إصلاحاً لا انتِصاراً في حَرب. والأمرُ الأخيرُ هو الأعجَب: فالطَّبيعيُّ لمن يَملِكُ جَيشاً وشَرعِيّةً أن يُقاتِل. أن يُوصَفَ حَفيدُ النَّبيِّ ﷺ بأنّه سيَتَنازَلُ وهو قادِر – **وهو ما عابَه عليه بعضُ أتباعِه** – ثمّ يُسمّى ذلك «سِيادةً» و«إصلاحاً»، حُكمٌ مُخالِفٌ لكلِّ تَوَقُّعٍ سِياسيّ. ووَقَعَ حَرفاً بحَرف.

٨٠

الخِلافةُ ثلاثون سنة... ثمّ مُلك

> الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ
>
> رواه أبو داود والتِّرمِذيُّ – صحّحه الألبانيّ

خَمسةُ خُلَفاءَ في ثَلاثينَ سنةً بالتَّمام... ثمّ تَبَدَّلَ نِظامُ الحُكم

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الخِلافةَ على مِنهاجِ النُّبُوّةِ ستَدومُ **ثَلاثينَ سنة** فقط، ثمّ يَتَحَوَّلُ الحُكمُ إلى مُلكٍ يُوَرَّث. وجاء الحِسابُ مُطابِقاً تماماً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أنظِمةُ الحُكمِ في الأرضِ كلِّها كانت مُلكاً وِراثيّاً: فارِسُ والرُّومُ والحَبَشةُ واليَمَن. ولم يَكُن في الأُفُقِ نِظامٌ آخَر. وأن يُحَدَّدَ لِنظامٍ لم يَبدأ بعدُ **عُمُرٌ بالسِّنين**، ثمّ يُقالَ إنّه سيَؤولُ إلى غيرِه، تَحديدٌ خَطيرٌ يَقبَلُ العَدَّ والحِساب.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

بَدَأَت الخِلافةُ بوَفاةِ النَّبيِّ ﷺ سنة ١١ هـ: أبو بكرٍ سَنَتانِ وثَلاثةُ أشهُر، ثمّ عُمَرُ عَشرُ سِنينَ ونِصف، ثمّ عُثمانُ نحوُ اثنَتي عشرةَ سنة، ثمّ عَليٌّ نحوُ خَمسِ سِنين، ثمّ الحَسَنُ نحوَ سِتّةِ أشهُرٍ حتّى تَنازَلَ سنة ٤١ هـ. **المَجموعُ: ثَلاثونَ سنةً بالتَّمام.** ثمّ صار الحُكمُ مُلكاً يُوَرَّثُ في بني أُمَيّةَ ثمّ بني العبّاس.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا رَقمٌ **قابِلٌ للقِياسِ والتَّكذيب**، لا وَصفٌ عامٌّ يَحتَمِلُ التَّأويل. ولو زادَت المُدّةُ سَنَتَينِ أو نَقَصَت لانكَشَفَ الأمرُ. والأعجَبُ أنّ الحَديثَ لم يَقُل «ثمّ يَنتَهي الإسلام» ولا «ثمّ يَسودُ الكُفر» – بل قال «ثمّ **مُلك**»، أي تَحَوُّلٌ في شَكلِ الحُكمِ مع بَقاءِ الدَّولة. وهذا بالضّبطِ ما جَرى: الدَّولةُ الإسلاميّةُ بَقِيَت واتَّسَعَت، لكنّ طَريقةَ اختِيارِ الحاكِمِ تَبَدَّلَت. دِقّةٌ في التَّوصيفِ السِّياسيِّ لا تَقِلُّ عن دِقّةِ الرَّقم.

٨١

رُعاةُ الشّاءِ يَتطاوَلونَ في البُنيان

أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – حديثُ جِبريل

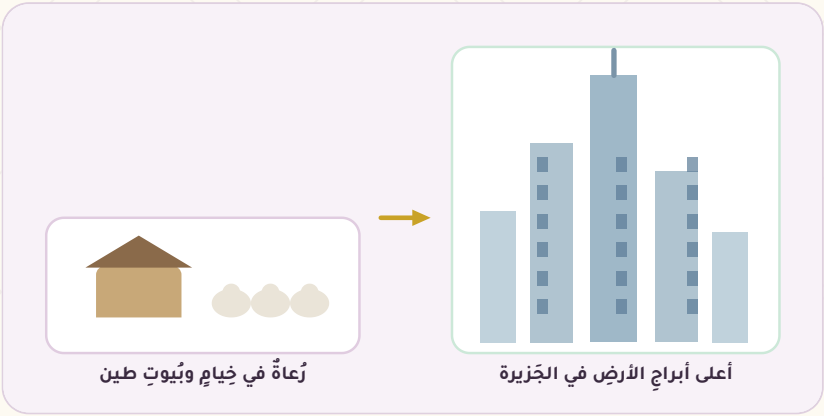

أطوَلُ مَبنًى في العالَمِ اليومَ يَقِفُ في صَحراءَ كانت بُيوتُها شَعَراً وطِيناً

بكلامٍ بسيط

أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنّ من عَلاماتِ آخِرِ الزَّمانِ أن يَصيرَ **رُعاةُ الغَنَمِ الفُقَراءُ الحُفاةُ** يَتَنافَسونَ في بِناءِ الأبنِيةِ العالِية. وهذا ما تَراه اليومَ بعَينِك.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجَزيرةُ العربيّةُ يومَئذٍ أفقَرُ بِقاعِ الأرضِ المَعمورة: لا نَهرَ ولا زَرعَ ولا مَعدِنَ مَعروف. وسُكّانُها رُعاةٌ يَنتَقِلونَ خَلفَ الكَلأ، وبُيوتُهم شَعرٌ وطِينٌ لا يَتَجاوَزُ الطّابِقَ الواحد. ولم يَكُن أحدٌ يَتَصَوَّرُ أن تَصيرَ هذه الأرضُ مَركزاً للثَّراءِ والعُمرانِ يوماً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

اكتُشِفَ النِّفطُ في الجَزيرةِ في ثَلاثينيّاتِ القرنِ العشرين، فتَبَدَّلَ حالُها في جِيلَين. واليومَ يَقِفُ **بُرجُ خَليفة** في دُبَيّ بارتِفاعِ ٨٢٨ متراً أطوَلَ مَبنًى في العالَم، و**بُرجُ جدّة** قَيدَ الإنشاءِ يَتَجاوَزُ الكيلومتر، و**أبراجُ البَيتِ** في مكّةَ من أضخَمِ المَباني كُتلةً على وَجهِ الأرض. والتَّنافُسُ على «الأطوَل» صارَ سِمةً مُعلَنةً لتلك المِنطَقةِ بالذّات.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثَلاثُ قُيودٍ في العِبارةِ الواحدةِ تَجعَلُها نُبوءةً لا حِكمةً عامّة. الأوّل: تَحديدُ **هُوِيّةِ الفاعِلين** – «رِعاءَ الشّاءِ الحُفاةَ العُراةَ العالة»، أي أنّ البُناةَ هم **الفُقَراءُ أنفُسُهم** لا أُمّةٌ غَنيّةٌ عَريقةٌ في العُمران. الثّاني: الفِعلُ «**يَتَطاوَلون**» – وهو تَفاعُلٌ يُفيدُ **المُنافَسةَ على الطُّول** بعَينِها، لا مُجَرَّدَ البِناءِ العالي. الثّالث: أنّ هذا سِيقَ **عَلامةً على تَبَدُّلٍ عَظيم**، أي أنّه أمرٌ خارِجٌ عن المُعتادِ يَستَحِقُّ أن يُعَدَّ آية. ومَن يَنظُرُ إلى صَحراءَ قاحِلةٍ فيَتَنَبَّأُ بأنّ أهلَها سيَتَنافَسونَ يوماً على أطوَلِ بِناءٍ في الأرض، لا يَتَكَلَّمُ عن حَدْس.

٨٢

حتّى تَعودَ أرضُ العَرَبِ مُروجاً وأنهاراً

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا

رواه مُسلِم – صحيح

تحت رِمالِ الجَزيرةِ مَجاري أنهارٍ قَديمةٍ كَشَفَتها الأقمارُ الصِّناعيّة

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ أرضَ العَرَبِ **ستَعودُ** مُروجاً خَضراءَ وأنهاراً جارِية. والكلمةُ المِفتاحيّةُ هي «**تَعود**» – أي أنّها كانت كذلك من قبل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجَزيرةُ العربيّةُ صَحراءُ قاحِلةٌ منذ ما قبلَ التّاريخِ المَكتوب، ولا يَعرِفُ أهلُها لها حالاً غيرَ هذه. ولم يَكُن هناك أيُّ سَبيلٍ لمعرفةِ ماضيها المُناخيِّ السَّحيق. وأن يُقالَ إنّها ستَعودُ مُروجاً **يَقتَضي أنّها كانت مُروجاً** – وهذا هو مَوضِعُ الخَبَر.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الأقمارُ الصِّناعيّةُ ورادارُ اختِراقِ الأرضِ كَشَفَت تحت رِمالِ الجَزيرةِ **شَبَكةً هائلةً من مَجاري أنهارٍ قَديمة** تُسمّى «الأنهارَ المُتَحَجِّرة»، أكبَرُها وادي الباطِنِ ووادي الرُّمّة. وأثبَتَت دِراساتُ المُناخِ القَديمِ أنّ الجَزيرةَ مَرَّت بفَتَراتٍ رَطبةٍ مُتَكَرِّرة (آخِرُها نحوَ ٦ آلافِ سنةٍ مَضَت) كانت فيها بُحَيراتٌ وأنهارٌ ومَراعٍ وحَيَواناتٌ كَبيرة. وقد عُثِرَ فيها على عِظامِ أفراسِ نَهرٍ وتَماسيحَ وأدَواتٍ حَجَريّةٍ قُربَ بُحَيراتٍ جافّة. والدَّوراتُ المُناخيّةُ تُنبِئُ بعَودةِ الرُّطوبةِ مُستَقبَلاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لفظةٌ واحدةٌ تَحمِلُ الإعجاز: «**تَعود**». فهي تُثبِتُ أمرَينِ معاً: خَبَراً عن **ماضٍ** جيولوجيٍّ لم يَكُن لأحدٍ به عِلم، ونُبوءةً عن **مُستَقبَلٍ** لم يَقَع بعد. ولو قيلَ «تَصير» لكان كَلاماً عن المُستَقبَلِ وحدَه. ولاحِظ القَرينةَ في الحَديثِ نفسِه: قَرَنَ ذلك بـ«يَكثُرَ المالُ ويَفيض» – وقد وَقَعَ هذا الشَّطرُ فِعلاً بالنِّفط، وهو ما يُموِّلُ اليومَ مَشاريعَ التَّشجيرِ والزِّراعةِ الضَّخمةَ هناك.

٨٣ نارٌ تَخرُجُ من أرضِ الحجاز

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

ثَوَرانٌ بُركانيٌّ تاريخيٌّ مُسَجَّلٌ في المَصادِرِ وفي طَبَقاتِ الحِمَم

بكلامٍ بسيط

أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنّ ناراً ستَخرُجُ من أرضِ الحِجازِ يَبلُغُ ضَوءُها مَدينةَ **بُصرى** في الشّامِ على بُعدِ مِئاتِ الكيلومترات. وقد وَقَعَ ذلك سنة ١٢٥٦ ميلاديّة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحِجازُ أرضٌ صَحراويّةٌ لم يَشهَد أهلُها بُركاناً في حَياتِهم. ولم تَكُن كلمةُ «بُركان» مَعروفةً أصلاً في بيئتِهم. وأن يُذكَرَ **مَوضِعُ الخُروجِ** و**مَدى الضَّوء** بتَحديدِ مَدينةٍ بعَينِها في بَلَدٍ آخَر، تَفصيلٌ لا يُقالُ إلّا عن يَقين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في **جُمادى الآخِرةِ سنة ٦٥٤ هـ / يونيو ١٢٥٦ م** ثارَ بُركانٌ في **حَرّةِ رَهْط** شَرقيَّ المدينةِ المُنَوَّرة، واستَمَرَّ نحوَ خَمسةٍ وخَمسينَ يوماً، وسالت منه حِمَمٌ على مَسافةِ عَشَراتِ الكيلومترات. وقد وَصَفَه المُؤَرِّخونَ المُعاصِرونَ له – كأبي شامةَ والقُرطُبيِّ وابنِ كَثيرٍ والنَّوَويّ – وذَكَروا أنّ **ضَوءَه رُئيَ من بُصرى وتَيماءَ ومكّة**، وأنّ النّاسَ كانوا يَستَضيئونَ به لَيلاً. وقد دَرَسَ الجيولوجيّونَ تَدَفُّقاتِ الحِمَمِ في حَرّةِ رَهْطٍ وأرَّخوها لهذا التّاريخ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ دِقّةَ الوَصف: لم يَقُل «نارٌ عَظيمة» فحَسب، بل حَدَّدَ **الأثَرَ المَرئيّ**: «**تُضيءُ أعناقَ الإبِلِ ببُصرى**». وبُصرى مَدينةٌ في جَنوبِ الشّام، تَبعُدُ عن المدينةِ نحوَ ألفِ كيلومتر. والتَّفصيلُ في «**أعناقِ الإبِل**» تَحديداً غَريبٌ حتّى يُفهَم: الوَهَجُ الأُفُقيُّ البَعيدُ يُضيءُ الأجسامَ المُرتَفِعةَ فوقَ خَطِّ الأُفُق، وعُنُقُ البَعيرِ أعلى ما في القافِلة. وهذا بالضّبطِ ما وَصَفَه المُؤَرِّخونَ بعدَ سِتَّةِ قُرون. والحادِثةُ مُسَجَّلةٌ في مَصادِرَ مُستَقِلّةٍ كَثيرة، ومُثبَتةٌ جيولوجيّاً في الصَّخر.

٨٤

يَتَقارَبُ الزَّمان

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ

رواه أحمد والتِّرمِذيّ – صحّحه الألبانيّ

ما كان يَستَغرِقُ شَهراً صار يَستَغرِقُ ساعَتَين

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الزَّمانَ **سيَتَقارَب**، فتَصيرَ السَّنةُ كالشَّهرِ والشَّهرُ كالأُسبوع. وهذا ما نَعيشُه: ما كان يَحتاجُ شُهوراً صار يَحتاجُ ساعات.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الزَّمَنُ كان ثابِتاً في تَجرِبةِ البَشَرِ منذ بَدءِ الخَليقة. السَّفَرُ بالجَمَلِ والفَرَس، والرِّسالةُ تَسيرُ شُهوراً، والخَبَرُ يَصِلُ بعدَ مَواسِم. ولم يَكُن يُتَصَوَّرُ أن تَتَغَيَّرَ هذه النِّسَبُ أبداً – فهي من ثَوابِتِ الحَياة.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

ما كانت القافِلةُ تَقطَعُه في شَهرٍ تَقطَعُه الطّائرةُ في ساعَتَين. والرِّسالةُ التي كانت تَستَغرِقُ أشهُراً تَصِلُ الآنَ في أقَلّ من ثانية. وما كان يَحتاجُ عُمُراً من البَحثِ في المَكتَباتِ يُنجَزُ في دَقائق. وقد صارَ هذا التَّسارُعُ مَوضوعَ دِراسةٍ في عِلمِ الاجتِماعِ باسمِ **«ضَغطِ الزَّمانِ والمَكان»** (Time-Space Compression)، وهو مُصطَلَحٌ مُعتَمَدٌ يَصِفُ أثَرَ سُرعةِ النَّقلِ والاتِّصالِ على إدراكِ المَسافات.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّعبيرُ نَفسُه هو الإعجاز. لم يَقُل «تَقِلُّ البَرَكة» ولا «يَمُرُّ العُمُرُ سَريعاً» – وكِلاهُما تَفسيرٌ مُمكِنٌ ومَقبول. بل استَعمَلَ صِيغةَ **نِسبةٍ رِياضيّةٍ مُتَدَرِّجة**: السَّنةُ ← شَهر، والشَّهرُ ← أُسبوع، والأُسبوعُ ← يوم، واليَومُ ← ساعة. أي أنّ الوَحدةَ الزَّمنيّةَ تَنكَمِشُ إلى نحوٍ عُشرِها في كلِّ دَرَجة. و«**يَتَقارَب**» فِعلُ مُفاعَلةٍ يُفيدُ اقتِرابَ الأطرافِ بَعضِها من بَعض – وهو وَصفٌ دَقيقٌ لانكِماشِ المَسافاتِ لا لنَقصِ البَرَكةِ وحدَه. ومُصطَلَحُ «ضَغطِ الزَّمانِ والمَكان» الذي صاغَه عُلَماءُ الاجتِماعِ في القرنِ العشرين يَكادُ يَكونُ تَرجَمةً حَرفيّةً للعِبارة.

٨٥

يَكثُرُ المالُ حتّى لا يَجِدَ مَن يَقبَلُ صَدَقَتَه

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

أُمّةٌ كانت تَربِطُ الحَجَرَ على بَطنِها من الجُوع

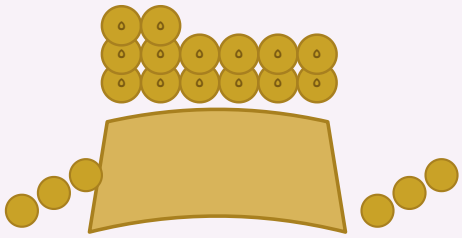

مَشاكِلُ الوَفرة... لا مَشاكِلُ النُّدرة

مِن أن يَشُدَّ النَّبيُّ ﷺ حَجَراً على بَطنِه... إلى فائضٍ لا يَجِدُ آخِذاً

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ زَماناً سيَأتي يَكثُرُ فيه المالُ حتّى **يَتَعَبَ صاحِبُ المالِ في إيجادِ فَقيرٍ يَقبَلُ صَدَقَتَه**. وقد وَقَعَ هذا في التّاريخِ مَرّاتٍ ويَقَعُ اليوم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

قيلَ هذا الكَلامُ في مُجتَمَعٍ **يُعاني الجُوعَ فِعلاً**: الصَّحابةُ يَربِطونَ الحِجارةَ على بُطونِهم يومَ الخَندَق، وأهلُ الصُّفّةِ لا يَجِدونَ ثَوباً يَستُرُهم. وفِكرةُ أن يَفيضَ المالُ حتّى لا يُوجَدَ فَقيرٌ كانت مُستَحيلةَ التَّصَوُّرِ يومَئذ. والتّاريخُ البَشَريُّ كلُّه إلى ذلك الوَقتِ تاريخُ نُدرةٍ لا وَفرة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

وَقَعَ هذا بصورةٍ واضِحةٍ في **خِلافةِ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز**، حتّى نَقَلَ المُؤَرِّخونَ أنّ عُمّالَه كانوا يَطوفونَ بالأموالِ فلا يَجِدونَ من يَأخُذُها، فاشتَروا بها الرِّقابَ وزَوَّجوا العُزّاب. وفي عَصرِنا: دُوَلٌ خَليجيّةٌ يَفيضُ فيها المالُ حتّى صارَ التَّحَدّي هو **إيجادَ مَصارِفَ للزَّكاة**، وصَناديقُ خَيريّةٌ عالَميّةٌ تُعلِنُ فائضاً لا تَجِدُ له مَصرِفاً في بِلادِها، ومَشاكِلُ اقتِصاديّةٌ حَديثةٌ اسمُها **«فائضُ الإنتاج»** و«الإفراطُ في الاستِهلاك».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النُّبوءةُ هنا ليست «سيَغنى النّاس» – وهذا كَلامٌ مُحتَمَل – بل هي مُعادَلةٌ مَقلوبةٌ تَماماً: **أن يَصيرَ العَطاءُ مُشكِلةً بدَلَ الأخذ**. وهذا انقِلابٌ في بِنيةِ المُجتَمَعِ لا مُجَرَّدُ تَحَسُّنٍ في الحال. والفِعلُ «**يُهِمَّ**» دَقيقٌ: أي يُقلِقُه ويَشغَلُ بالَه – فالمُشكِلةُ نَفسيّةٌ إداريّة، لا مادّيّة. وهذا هو بالضّبطِ وَصفُ صَناديقِ الزَّكاةِ المُعاصِرةِ حين تُعلِنُ عن فائضٍ لا مَصرِفَ له. قِيلَ هذا لقَومٍ لا يَجِدونَ قُوتَ يَومِهم.

ستَفتَحونَ مِصر... فاستَوصوا بأهلِها خَيراً

إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا

رواه مُسلِم – صحيح

مِصرُ: وَصّى بها النَّبيُّ ﷺ قبلَ فَتحِها بأكثَرَ من عِشرينَ سنة

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ المُسلِمينَ **سيَفتَحونَ مِصر**، وأوصاهم بأهلِها خَيراً قبلَ أن يَدخُلوها. وذَكَرَ عَلامةً لها: أنّها أرضٌ يُستَعمَلُ فيها **«القيراط»**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

مِصرُ يومَئذٍ وِلايةٌ رُومِيّةٌ حَصينة، والدَّولةُ الإسلاميّةُ ناشِئةٌ لم تَخرُج من الجَزيرةِ بعد. والعَرَبُ يَعرِفونَ مِصرَ تِجارةً ولا يَعرِفونَ تَفاصيلَ نُظُمِها. وأن يُوصى بأهلِ بَلَدٍ **قبلَ فَتحِه** يَعني الجَزمَ بأنّه سيُفتَح.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

فُتِحَت مِصرُ سنة ٢٠ هـ على يدِ عَمرِو بنِ العاصِ في خِلافةِ عُمَر. وأمّا «**القيراط**» فهو وَحدةُ قياسٍ ذاتُ أصلٍ يونانيٍّ مِصريّ، وما زالت تُستَعمَلُ في مِصرَ إلى اليومِ لقياسِ الأرض (القيراطُ = ١/٢٤ من الفَدّان) وللذَّهَبِ (عِيارُ ٢١ و٢٤ قيراطاً). وهي وَحدةٌ **لا تُستَعمَلُ بهذا الشُّيوعِ في غيرِ مِصرَ من بِلادِ العَرَب**. وقد ظَلَّ المُؤَرِّخونَ يَذكُرونَ أنّ أهلَ مِصرَ يَختَصُّونَ بهذه التَّسمِية.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

العَلامةُ المَذكورةُ هي الشّاهِد: «**أرضٌ يُسَمّى فيها القيراط**». وهذا تَعريفٌ باصطِلاحٍ مَحَلّيٍّ خاصٍّ بأهلِ بَلَدٍ لم يَدخُلْه المُسلِمونَ بعد – وهو نَوعٌ من التَّفاصيلِ التي لا يَذكُرُها إلّا مَن يَعلَم. ثمّ التَّعليلُ الأعجَب: «فإنّ لهم **ذِمّةً ورَحِماً**» – والرَّحِمُ إشارةٌ إلى هاجَرَ أُمِّ إسماعيلَ عليه السّلام وهي مِصريّة، وإلى ماريةَ القِبطيّةِ أُمِّ إبراهيمَ ابنِ النَّبيِّ ﷺ. فالوَصِيّةُ مَبنِيّةٌ على نَسَبٍ حَقيقيّ. وَصِيّةٌ بحُسنِ مُعامَلةِ شَعبٍ قبلَ فَتحِ بِلادِه بعِشرينَ سنة، مِن رَجُلٍ لا جَيشَ له يومَ قالها.

٨٧ أُوَيسٌ القَرَنيّ... وَصفٌ لرَجُلٍ لم يَرَه

يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ

رواه مُسلِم – صحيح

خَمسُ عَلاماتٍ حُدِّدَت سَلَفاً

- اسمُه: أُوَيسُ بنُ عامِر
- قَبيلتُه: مُرادٌ ثمّ قَرَن
- كان به بَرَصٌ فبَرِئ
- بَقِيَ منه مَوضِعُ دِرهَم
- بارٌّ بأُمِّه لا غير

وَجَدَه عُمَرُ بعدَ سِنينَ بهذه العَلاماتِ كلِّها

عُمَرُ بنُ الخَطّابِ كان يَسألُ عنه في مَواسِمِ الحَجِّ حتّى وَجَدَه

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ رَجُلاً **لم يَرَه قَطُّ ولم يَلقَه**: اسمَه، وقَبيلتَه، وأنّه شُفِيَ من مَرَضٍ إلّا بُقعةً صَغيرةً بقَدرِ قِطعةِ نُقود، وأنّه بارٌّ بأُمِّه. ثمّ وَجَدَه عُمَرُ بهذه الأوصافِ كلِّها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أُوَيسٌ رَجُلٌ مَغمورٌ من اليَمَن، لا جاهَ له ولا ذِكر، ولم يَلقَ النَّبيَّ ﷺ أبداً (ولهذا يُعَدُّ من التّابِعينَ لا الصَّحابة). وبين اليَمَنِ والمدينةِ مَسافةٌ طَويلة، ولا سَبيلَ لمعرفةِ أخبارِ آحادِ النّاسِ فيها. والوَصفُ يَشمَلُ **عَلامةً جَسَديّةً دَقيقةً جِدّاً** لا يَعرِفُها إلّا من رآه عارِياً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

خَرَجَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رَضيَ اللّهُ عنه يَسألُ عن أُوَيسٍ في أمدادِ أهلِ اليَمَنِ سنةً بعدَ سنة، حتّى لَقِيَه، فسألَه عن اسمِه وقَبيلَتِه، ثمّ سألَه عن البَرَصِ فوَجَدَ الأمرَ كما وُصِف، ثمّ سألَه: «ألكَ والِدة؟» قال: نعم. فطَلَبَ منه أن يَستَغفِرَ له. والقِصّةُ بتَمامِها في **صحيحِ مُسلِم**، من أوثَقِ ما رُوِيَ في هذا الباب.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

خَمسُ عَلاماتٍ مُستَقِلّةٍ اجتَمَعَت في رَجُلٍ واحد. الاسمُ والنَّسَبُ قد يُصيبُهما مُتَخَرِّص، لكنّ العَلامةَ الرّابِعةَ هي الفاصِلة: «**كان به بَرَصٌ فبَرَأَ منه إلّا مَوضِعَ دِرهَم**» – فهذا وَصفٌ لمَرَضٍ سابِقٍ، ولشِفاءٍ منه، ولبَقيّةٍ مُحَدَّدةِ الحَجم. ثَلاثُ مَعلوماتٍ في عَلامةٍ واحدة، عن جَسَدِ رَجُلٍ في بَلَدٍ آخَر. والعَجيبُ أنّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ عُمَرَ أن **يَطلُبَ منه الدُّعاء** – فجَعَلَ أميرَ المُؤمِنينَ يَبحَثُ عن راعٍ مَغمورٍ سِنينَ ليَستَغفِرَ له. ولو أخطَأَت عَلامةٌ واحدةٌ لسَقَطَ الخَبَرُ كلُّه أمامَ أعينِ الصَّحابة.

أوّلُ جَيشٍ يَركَبُ البَحر

أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا ... ثُمَّ قَالَ: أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

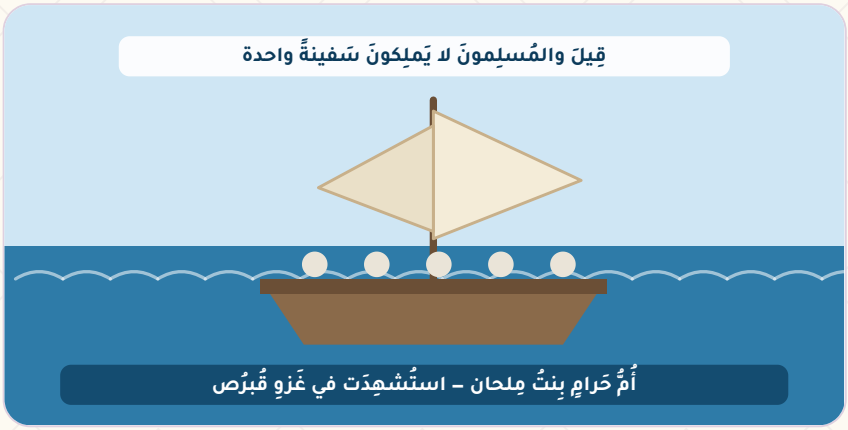

أوّلُ غَزوةٍ بَحريّةٍ في الإسلام – قُبرُص، سنة ٢٨ هـ

بكلامٍ بسيط

رأى النَّبيُّ ﷺ في المَنامِ جَيشاً من أُمّتِه **يَركَبُ البَحر**، فسألَته أُمُّ حَرامٍ أن يَدعُوَ لها أن تَكونَ منهم، فقال: **«أنتِ من الأوَّلين»**. وقد كانت.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَرَبُ أُمّةُ بَرٍّ لا بَحر. لا سُفُنَ لهم ولا مَعرِفةَ بالمِلاحةِ الحَربيّة، والبَحرُ في ثَقافَتِهم مَخوفٌ يُتَجَنَّب. بل إنّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ رَفَضَ الإذنَ بغَزوِ البَحرِ في خِلافَتِه كلِّها خَوفاً على النّاس. فالتَّنبُّؤُ بجَيشٍ بَحريٍّ إسلاميٍّ كان بَعيدَ الاحتِمالِ جِدّاً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ٢٨ هـ أذِنَ عُثمانُ بنُ عَفّانَ لمُعاويةَ بغَزوِ البَحر، فأُنشِئَ أوّلُ أُسطولٍ إسلاميٍّ وغَزا **قُبرُص**. وخَرَجَت معه **أُمُّ حَرامٍ بِنتُ مِلحان** رَضيَ اللهُ عنها، فلمّا نَزَلَت قُدِّمَت لها دابّةٌ فصَرَعَتها فماتت، فدُفِنَت هناك. وقَبرُها مَعروفٌ في قُبرُصَ إلى اليومِ باسمِ «هالا سُلطان تَكّه» ويَزورُه النّاس. والقِصّةُ في الصَّحيحَين.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثَلاثُ طَبَقاتٍ من الإخبارِ في جُملةٍ قَصيرة. الأولى: أنّ للأُمّةِ **جَيشاً بَحريّاً** أصلاً – وهي أُمّةُ صَحراءَ لا سُفُنَ لها. الثّانية: أنّ امرأةً بعَينِها **ستَكونُ فيه** – وهي يومَئذٍ في المدينةِ لا تُفَكِّرُ في بَحر. الثّالثةُ وهي الأدَقّ: أنّها من «**الأوَّلين**» لا من الآخِرين – أي في **الحَملةِ الأولى** تحديداً، لا في غَزوةٍ لاحِقة. وقد سألَته أن تَكونَ من الطّائفةِ الثّانيةِ التي رآها فقال: «أنتِ من الأوَّلين». فوَقَعَ التَّحديدُ على وَجهِه. وماتَت في تلك الحَملةِ بعَينِها بعدَ نَحوِ عِشرينَ سنةً من الخَبَر.

٨٩

الخَوارِج... ورَجُلٌ إحدى يَدَيه كثَدْيِ المرأة

يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ ... يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

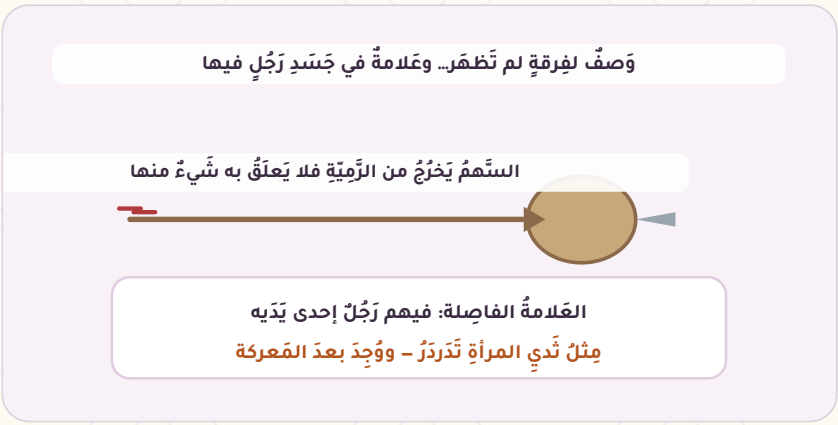

عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه أمَرَ بالبَحثِ عنه بين القَتلى حتّى وُجِد

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ جَماعةً ستَخرُجُ في المُسلِمين: عِبادَتُهم شَديدةٌ ظاهِراً، ويَقرَؤونَ القرآنَ، لكنّهم **يَخرُجونَ من الدِّين**. وأعطى عَلامةً: فيهم رَجُلٌ يَدُه ناقِصةٌ غَريبةُ الشَّكل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن هناك فِرَقٌ ولا انقِسامٌ في الأُمّة. وفِكرةُ قَومٍ **يَجمَعونَ بين شِدّةِ العِبادةِ والخُروجِ من الدِّين** كانت مُتَناقِضةً في ظاهِرِها – فالمُعتادُ أن يَكونَ المُنحَرِفُ مُقَصِّراً في عِبادَتِه لا مُبالِغاً فيها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

ظَهَرَ **الخَوارِجُ** في خِلافةِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، فكَفَّروا المُسلِمينَ واستَحَلُّوا دِماءَهم، مع اشتِهارِهم بطولِ الصَّلاةِ وكَثرةِ التِّلاوة. وقاتَلَهم عَليٌّ في **النَّهرَوان** سنة ٣٨ هـ. وبعدَ المَعركةِ أمَرَ بالبَحثِ عن الرَّجُلِ المَوصوف، فالتُمِسَ بين القَتلى حتّى وُجِد: رَجُلٌ إحدى يَدَيه كثَدْيِ المرأة، فكَبَّرَ عَليٌّ وقال: «صَدَقَ اللهُ وبَلَّغَ رَسولُه». والقِصّةُ في صحيحِ مُسلِم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّشبيهُ نَفسُه بالِغُ الدِّقّة: «**يَمرُقونَ من الدِّينِ كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيّة**». والسَّهمُ إذا نَفَذَ من الصَّيدِ خَرَجَ **نَظيفاً لا يَعلَقُ به شَيءٌ من دَمٍ ولا لَحم** – وهذا وَصفٌ لمن يَمُرُّ بالدِّينِ فلا يَبقى معه منه شَيء، مع شِدّةِ سُرعَتِه فيه. لكنّ الحاسِمَ هو **العَلامةُ الجَسَديّة**: تَشوُّهٌ نادِرٌ في ذِراعِ رَجُلٍ واحدٍ بعَينِه، في جَماعةٍ لم تُخلَق بعد، في مَعركةٍ لم تَقَع. وهي عَلامةٌ **قابِلةٌ للفَحصِ فَوراً** – ولهذا فَتَّشَ عَليٌّ عنها بنفسِه بين القَتلى. ولو لم يُوجَد لسَقَطَ الخَبَرُ أمامَ جَيشٍ كامِل.

٩٠

قَومٌ صِغارُ الأعيُنِ عِراضُ الوُجوه

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ، وَحَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ صِغَارَ الْأَعْيُنِ، حُمْرَ الْوُجُوهِ، ذُلْفَ الْأُنُوفِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

وَصفٌ عِرقيٌّ دَقيقٌ لشَعبٍ لم يَرَه العَرَبُ يومَئذ

«صِغارُ الأعيُنِ · عِراضُ الوُجوهِ · ذُلفُ الأُنوف»

الغَزوُ المَغوليُّ – القَرنُ السّابِعُ الهِجريّ

ملامِحُ شُعوبِ آسيا الوُسطى مَوصوفةٌ قبلَ أن يَراها العَرَبُ بقُرون

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ قَوماً سيُقاتِلُهم المُسلِمون، ووَصَفَ **شَكلَ وُجوهِهم**: عُيونٌ صَغيرة، ووُجوهٌ عَريضةٌ مُستَديرة، وأُنوفٌ قَصيرةٌ مُفَطَّسة. وهذه ملامِحُ شُعوبِ آسيا الوُسطى والمَغول.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَرَبُ في الجَزيرةِ لم يَكونوا يَرَونَ إلّا أنفُسَهم والرُّومَ والفُرسَ والأحباش – وكلُّهم ذَوو ملامِحَ مُختَلِفةٍ تَماماً عن هذا الوَصف. وشُعوبُ السُّهوبِ الآسيويّةِ كانت وراءَ فارِسَ في أقاصي الشَّرق، لا يَبلُغُ خَبَرُها الجَزيرة. ولم يَكُن بين العَرَبِ وبينهم اتِّصالٌ ولا حَربٌ ولا تِجارة.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

وَصَفَ الحَديثُ ثَلاثَ سِماتٍ تَشريحيّةٍ مَعروفةٍ اليومَ بأنّها مُميِّزةٌ لشُعوبِ شَرقِ آسيا وآسيا الوُسطى: **الشَّقُّ الجَفنيُّ الضَّيِّقُ مع طَيّةِ المُوقِ**، و**الوَجهُ العَريضُ المُسطَّحُ بارِزُ الوَجنَتَين**، و**الأنفُ القَصيرُ المُنخَفِضُ القَصَبة**. وقد وَقَعَ القِتالُ فِعلاً: الغَزوُ المَغوليُّ في القَرنِ السّابِعِ الهِجريِّ الذي دَمَّرَ بَغداد سنة ٦٥٦ هـ، ثمّ هُزِمَ في **عَينِ جالوت** سنة ٦٥٨ هـ. وسَبَقَه قِتالُ المُسلِمينَ للتُّركِ في ما وَراءَ النَّهرِ منذُ القَرنِ الأوّل.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا وَصفٌ **أنثروبولوجيٌّ** لا سِياسيٌّ ولا عَسكَريّ. ولم يَقتَصِر على سِمةٍ واحدةٍ قد تُصيبُ بالصُّدفة، بل جَمَعَ **أربَعَ سِماتٍ مُتَلازِمة** تُشَكِّلُ معاً نَمَطاً وَجهِيّاً مُحَدَّداً يَعرِفُه عِلمُ الأعراقِ اليوم. والتَّشبيهُ الأخيرُ بالِغُ الدِّقّة: «كأنّ وُجوهَهم **المَجانُّ المُطرَقة**» – والمِجَنُّ هو التُّرس، والمُطرَقةُ هي التي أُلبِسَت طَبَقاتٍ من الجِلدِ فصارَت عَريضةً مُستَديرةً قَليلةَ البُروز. أن يَصِفَ رَجُلٌ في صَحراءِ الجَزيرةِ ملامِحَ شَعبٍ يَسكُنُ وراءَ الصِّين، ثمّ يُخبِرَ بأنّ أُمّتَه ستُقاتِلُه، أمرٌ لا مَدخَلَ فيه للتَّخمين.

٩١

يَشرَبونَ الخَمرَ يُسَمُّونَها بغيرِ اسمِها

لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا

رواه أبو داود وابنُ ماجه – صحّحه الألبانيّ

التَّسمِيةُ تَتَغَيَّرُ ليَسهُلَ تَناوُلُ ما حُرِّم

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ أُناساً من أُمّتِه سيَشرَبونَ الخَمرَ، لكنّهم **لن يُسَمُّوها خَمراً** – سيُعطونَها أسماءً أُخرى ليَستَسيغوها ويُبَرِّروها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الخَمرُ كانت تُسمّى باسمِها صَراحةً ويُفتَخَرُ بها في الشِّعر. ولم يَكُن أحدٌ يَستَحي منها ولا يَحتاجُ إلى إخفاءِ اسمِها. فالحَديثُ يَتَنَبَّأُ بسُلوكٍ **نَفسِيٍّ واجتِماعيٍّ** مُعَيَّن: أن يَعتَرِفَ النّاسُ بالتَّحريمِ ثمّ يَلتَفُّوا عليه بتَغييرِ التَّسمِية.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

هذه ظاهِرةٌ مَرصودةٌ في عِلمِ الاجتِماعِ واللُّغةِ باسمِ **«التَّلطيفُ اللَّفظيّ»** (Euphemism): تَغييرُ اسمِ الشَّيءِ لتَخفيفِ وَقعِه أو لتَجاوُزِ مَنعِه. وواقِعُنا مَليءٌ بأمثِلَتِها: «مَشروباتٌ رُوحيّة» و«نَبيذٌ صِحّيّ» و«مَشروباتُ طاقة» تَحوي كُحولاً، و«تَمرُ هِنديٍّ مُخَمَّر»، و«بيرةٌ خالِيةٌ من الكُحول» تَحوي نِسبةً منه. والمَبدأُ نفسُه يُستَعمَلُ في الرِّبا («فائدة»، «عائدٌ استِثماريّ»)، وفي غيرِه من المُحَرَّمات.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النُّبوءةُ هنا ليست عن **فِعل** بل عن **حِيلةٍ لُغَويّة** – وهذا أدَقُّ وأصعَبُ. فأن يُقالَ «سيَشرَبُ ناسٌ الخَمر» خَبَرٌ مُتَوَقَّع. أمّا أن يُحَدَّدَ **أُسلوبُ التَّحايُل** – وهو تَبديلُ الاسمِ لا إنكارُ الحُكم – فهذا وَصفٌ لآليّةٍ نَفسِيّةٍ اجتِماعيّةٍ لم تَكُن ظاهِرةً في ذلك المُجتَمَعِ أصلاً. وهي اليومَ بابٌ كامِلٌ في عِلمِ اللُّغةِ الاجتِماعيّ. ويَتَّسِقُ هذا مع حَديثٍ آخَرَ يَذُمُّ من «يَستَحِلُّ الحَرامَ باسمٍ يُسَمّيه إيّاه» – فالقاعِدةُ واحدةٌ وإن تَعَدَّدَت صُوَرُها.

٩٢ لَتَتبَعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم

لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

الأُمَمُ تُعيدُ أخطاءَ سابِقاتِها بدَرَجةٍ تُدهِشُ المُؤَرِّخين

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ هذه الأُمّةَ ستُقَلِّدُ الأُمَمَ التي سَبَقَتها **خُطوةً بخُطوة**، حتّى في الأشياءِ السَّخيفةِ التي لا فائدةَ فيها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان السّائدُ أنّ كلَّ أُمّةٍ لها طَريقُها الخاصّ، وأنّ المُسلِمينَ مُتَمَيِّزونَ بدِينِهم عن أن يَقَعوا فيما وَقَعَ فيه غَيرُهم. ولم يَكُن هناك تَصَوُّرٌ لـ«قانونٍ» يَحكُمُ مَسارَ الأُمَمِ جَميعاً بلا استِثناء.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

هذا هو جَوهَرُ ما يُسمّى في عِلمِ الاجتِماعِ التّاريخيِّ بـ**«الدَّوراتِ الحَضاريّة»**. وقد صاغَه ابنُ خَلدونَ في مُقَدِّمَتِه بعدَ سَبعةِ قُرون، وبَنى عليه أوزوالد شبنغلر وأرنولد توينبي نَظَريّاتِهما في القَرنِ العشرين: **الأُمَمُ تَمُرُّ بأطوارٍ مُتَشابِهةٍ من النُّهوضِ والتَّرَفِ والانحِلال**، وتُعيدُ أخطاءَ سابِقاتِها بصورةٍ تَكادُ تَكونُ حَتميّة. ورَصَدَ عُلَماءُ الاجتِماعِ ظاهِرةً مُوازِيةً في سُلوكِ الأفرادِ سَمَّوها **«تَقليدَ الجَماعة»** (Herd Behaviour).

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعُ الدِّقّةِ في القَيدِ الأخير: «**حتّى لو دَخَلوا جُحرَ ضَبٍّ لاتَّبَعتُموهم**». فالحَديثُ لا يَتَحَدَّثُ عن تَقليدِ النّافِعِ – وهذا مَعقولٌ ومَحمود – بل عن تَقليدِ **ما لا فائدةَ فيه ولا مَعنى له**، بل ما فيه ضَرَرٌ ظاهِر. وهذا هو بالضّبطِ ما يَصِفُه عُلَماءُ الاجتِماعِ اليومَ في مَوضاتِ السُّلوكِ التي تَجتاحُ المُجتَمَعاتِ بلا سَبَبٍ عَقلانيّ. ولاحِظ صِيغةَ القَسَمِ والتَّوكيدِ «**لَتَتَّبِعُنَّ**» – فهي جَزمٌ بالوُقوعِ لا تَحذيرٌ مِن مُحتَمَل. وقد وَقَعَ بصورةٍ لا يُنكِرُها أحد.

تَداعي الأُمَمِ... وغُثاءُ السَّيل

يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. قِيلَ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ

رواه أبو داود وأحمد – صحّحه الألبانيّ

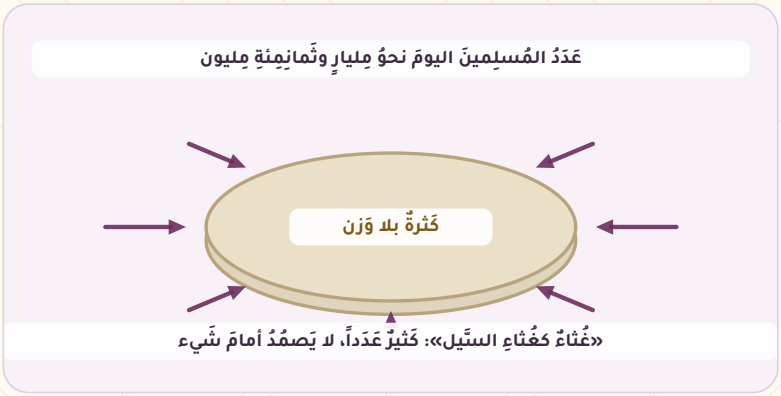

الحَديثُ نَفى أن يَكونَ السَّبَبُ قِلّةَ العَدَد – وحَدَّدَ السَّبَبَ الحَقيقيّ

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الأُمَمَ ستَتَداعى على المُسلِمينَ كما يَتَداعى الآكِلونَ على المائدة. فسُئِل: أمِن قِلّةٍ؟ فقال: **لا، بل أنتم كَثيرون** – لكن بلا وَزنٍ ولا أثَر.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الأُمّةُ في طَريقِها إلى أن تَصيرَ أعظَمَ قُوّةٍ في الأرض. وبعدَ جِيلٍ واحدٍ فَتَحَت فارِسَ والشّامَ ومِصرَ وشَمالَ إفريقيا. فالتَّنبُّؤُ بضَعفٍ قادِمٍ – مع **كَثرةٍ عَدَديّة** – بَدا مُتَناقِضاً تَماماً مع المَسارِ الظّاهِر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عَدَدُ المُسلِمينَ اليومَ نحوُ مِليارٍ وثَمانِمِئةِ مِليون، أي قُرابةَ رُبعِ سُكّانِ الأرض، ويَملِكونَ أكبَرَ احتِياطيّ طاقةٍ في العالَم، ومَواقِعَ جُغرافيّةً استِراتيجيّة. ومع ذلك فنَصيبُهم من الإنتاجِ العِلميّ والصِّناعيّ والاقتِصاديّ العالَميّ ضَئيلٌ بالنِّسبةِ إلى عَدَدِهم، وبِلادُهم من أكثَرِ بِقاعِ الأرضِ نِزاعاً وتَبَعِيّة. **الكَثرةُ العَدَديّةُ قائمة، والوَزنُ الحَضاريُّ غائب** – وهي المُعادَلةُ التي وَصَفَها الحَديثُ بالضّبط.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أهَمُّ ما في هذا الحَديثِ أنّه **استَبَقَ التَّفسيرَ الخاطِئَ ونَفاه صَراحةً**. فحين سُئِلَ: «ومِن قِلّةٍ نحن يومَئذ؟» لم يَقُل نعم – بل قال: «بل أنتم يومَئذٍ كَثير». فأخرَجَ العَدَدَ من المُعادَلةِ كلِّها، وأثبَتَ أنّ **الخَلَلَ في النَّوعِ لا في الكَمّ**.

والتَّشبيهُ بـ«**غُثاءِ السَّيل**» في غايةِ الدِّقّة: الغُثاءُ ما يَحمِلُه السَّيلُ من زَبَدٍ وعِيدانٍ يَعلو السَّطحَ ويَبدو كَثيراً، لا وَزنَ له ولا يَثبُتُ في مَكان، ويَذهَبُ حيثُ يُساقُ لا حيثُ يُريد. ثمّ ذَكَرَ السَّبَبَ في تَتِمّةِ الحَديث: «الوَهن... حُبُّ الدُّنيا وكَراهيةُ المَوت» – تَشخيصٌ نَفسِيٌّ لا عَسكَريّ.